المرأة الغزّية وعذاباتها المتراكمة

بسمة النسور

في وقت تنشغل فيه الأمّهات الكادحات، بعد أن تدبَّرن الأقساط، متحمّساتٍ سعيداتٍ بتحضير مستلزمات أبنائهن من قرطاسية وثياب للعام الدراسي الجديد، وينخرط الناشطون بكلّ حميةٍ وحماسةٍ في الجدل البيزنطي في مواقع التواصل الاجتماعي، بين أغلبية مُعارضة وأقلّية موافقة بشأن جدوى تضمين منهاج الصف الرابع الابتدائي فقرةً عن سميرة توفيق، وفي تبادل الآراء المتباينة بشأن أغاني المغنّي السوري المعروف بـ«الشامي»، التي كسّرت الدنيا وحصدت مليار مشاهدة (على ذمّتهم)، وفي تقييم إطلالات الفنّانات في المهرجانات السينمائية، وفي التحسّر على شباب هيفاء وهبي، التي لم تعد قادرةً على إخفاء علامات تقدّمها في السنّ... في هذا الوقت بالذات، تنهمك المرأة الغزّية الوحيدة المخذولة، في جمع أشلاء أحبّتها، ونبش أنقاض منزلها، بحثاً عمّا يزوّدها بمبرّرات مواصلة حياتها الموحشة القاسية العنيفة، وقد استولى عليها إحساسها باليأس والإرهاق والأسى والمرارة، بسبب ما عانته من خسارات جسيمةٍ نالت من روحها أمّاً وزوجةً وشقيقةً وابنةً، وطفلةً مذعورة هانت الحياة في نظرها فتساوت في لحظة يأس مطلقة مع الموت، الذي بات لصيقاً بأنفاسها، فاستحالت كتلةً من مشاعر الحزن والغضب والخوف والخيبة من تنكّر (وتنصّل) أمّةٍ عربيةٍ واحدةٍ صمّاء بكماء.

وما زالت السيّدة الغزّية العظيمة، رغم كلّ شيء، تبثّ برقيات وجع عزّت بلاغتها على أعتى المنظّرين. وإزاء قسوة المشهد الدامي ووحشيّته، يبدو الالتفات إلى أيّ مسألةٍ خارج حدود هذه المعاناة، ذات البعد السوريالي، ضرباً من الترف (كي لا نقول أكثر فنسقط في فخّ التخوين). الأمر ليس سهلاً علينا نحن الذين نحتلّ منذ ما يقارب العام مقاعدَ المتفرّجين في بيوت لم تنهَرْ سقوفها فوق رؤوسنا، ولم تدامهنا الحنفيات بذلك الفحيح الظالم الذي ينذر بظمأ قادم، ولم يكفّ التيّار الكهربائي عن تدفّقه نحو أجهزتنا الكهربائية، ولم ينفد من بيوتنا الرغيف الأخير (وإذا نفد نبتاع المزيد بكلّ بساطة)، ولا يعترينا سوى قلق طفيف إذا تأخّر الأولاد خارج البيت، فنحن مطمئنّون بأنّهم سوف يعودون في نهاية الأمر، وبأنّ أحداً لن يطرق بابنا بوجهٍ متجهّم ليخبرنا بعبارات رصينة أنّ علينا أن نطلق الرَّغارِيد (!)

ومع ذلك، يمكن الجزم بأنّ أصحاب الضمائر الحيّة والحسّ الوطني العالي، جميعاً يعانون القهر والخجل والإحباط، لعجزهم عن أيّ فعلٍ حقيقيّ يحدّ من منسوب الوحشية والبشاعة التي تقترف بدم بارد ضدّ شعب يسعى إلى ممارسة حقّه في الحياة، ليس أمامهم، والحالة هذه، سوى التسمّر ساعاتٍ أمام الشاشات، آملين تحقّق معجزةٍ ما من شأنها وقف حصاد الأرواح غير القابل للتوقّف ولو للحظة.

وإذ ندرك أنّ المواطن الغزّي يصنع معجزته الخاصّة في ظروف الإبادة الجماعية عاريَ الصدر مكشوفَ الظهر، بادّاً دماءه المضرّجة بإكسير العزّة والكرامة، علينا من باب إحقاق الحقّ تسليط الضوء، أكثر على الصورة المشرقة للمرأة الغزّية، الضحية الأبرز في هذه المقتلة، لأنّها نموذجٌ بلغ درجةً الاحتراف في التحمّل والمواجهة والصبر والصمود والشجاعة والتشبّث بالحلم المشروع لصغارها، بحياة حرّة كريمة آمنة وتشوّقها إلى حياة طبيعية أقلّ انكساراً. نتأمّل، في هذه اللحظة العصيبة الثقيلة، بفخر كبير، قدرتها الاستثنائية على مقارعة الحياة غير المُنصفة، وسعيها المُبهر للحيلولة دون نفاد الرغيف الأخير من خيمتها المشرعة لتقلّبات الطقس غير الرحيم، وحزن عينيها، الذي جفّت فيهما الماقي جرّاء تراكم الأحزان، وصلابة روحها العصيّة على الانهزام، تتأمّل توقها إلى الانعتاق من نير واقع حالك السواد، وحنينها إلى صباحات أقلّ دموية، وحسدها الخفي للجارة التي لا تجهل مكان القبور التي تضمّ أحبّتها، وروحها المتعبة المثخنة بجراح عميقة عصيّة على الشفاء، وما يتعلّق بسيّدة النساء كلّه، للمرأة الغزّية المنكوبة المُعذّبة نقدّم اعتذارنا الخجول لعلّها تغفر.

في العلاقة المُعقّدة بين موسكو وطهران

باسل الحاج جاسم

في وقت فرضت باريس وبرلين ولندن عقوباتٍ جديدةً على إيران، بسبب اتهامات نقل طهران صواريخ بالستية إلى روسيا، يبدو انشغال الإعلام الإيراني بمهاجمة موسكو بسبب دعمها فتح ممر زانغيزور، الذي سيربط إقليم ناختشفان الأذربيجاني بأذربيجان عبر أراضي أرمينيا، يخفي توتّرات مستمرّة، ويبعكس قلقاً عميقاً لدى إيران من تراجع نفوذها في المنطقة. الواضح من التصريحات الإيرانية، أخيراً، أنّ ناراً تحت الرماد في علاقات موسكو وطهران، المتنامية في ظلّ ضغوط وعقوبات غربية مع تحدّيات مشتركة بمواجهة البلدان، ويبدو أنّ آخر موقف لروسيا من ممرّ زانغيزور، دفع تحفّظات إيرانية عديدة إلى أن تطفو في السطح بعد قضية الاتفاق النووي، الذي ساهمت روسيا بإفشال المفاوضات حوله (بحسب اتهامات إيرانية)، وكذلك جرّ إيران إلى أزمة أوكرانيا.

العلاقات الروسية الإيرانية مُعقّدة ومتشابكة، تتأثّر بعوامل داخلية وخارجية عديدة، شهدت تحوّلاتٍ عديدة بين التعاون والتوتّر، والتنافس على النفوذ، ويعود تاريخ هذه العلاقات إلى قرون مضت، وتأثّرت كثيراً بالتطوّرات السياسية والاقتصادية في كلا البلدين، وكذلك بالتغيّرات الجيوسياسية في المنطقة والعالم، والمُؤكّد أنّ استمرار التناقضات بين موسكو وطهران سيظلّ يعرقل طموحات إيران الإقليمية.

يمكن القول إنّ فشل إيران في الحفاظ على نفوذها جنوب القوقاز هو نتيجة سياساتها الخارجية غير المتناسقة، التي لم تكن فعّالة في مواجهة منافسيها، مثل تركيا وأذربيجان، كما تحدّ المعقوبات الدولية من قدرة طهران على الاستثمار في المنطقة وتطوير علاقاتها التجارية، وتؤثّر هذه العقوبات سالباً في الاقتصاد الإيراني، وتجعل من الصعب عليها تحقيق أهدافها، بالإضافة إلى التوسّع الإسرائيلي في المنطقة، الذي يدفع إيران إلى اتّخاذ إجراءات مضادّة. وتمثّل الشراكة الوثيقة بين روسيا وأذربيجان تحدّياً كبيراً لإيران، فتمنح أذربيجان دعماً عسكرياً واقتصادياً قوياً، ما يُعزّز قدرتها على مواجهة الضغوط الإيرانية، وتشكّل تركيا منافساً قوياً في جنوب القوقاز، تسعى إلى تعزيز نفوذها في المنطقة عبر دعم أذربيجان وتطوير علاقاتها مع جورجيا، ويزيد هذا التنافس مع التحدّيات التي تواجهها إيران من حدّة التوتّرات. وصحيح أنّ إيران تمتّعت بعلاقات قوية مع أرمينيا، لكنّها في المقابل لم تتمكّن من جعل أذربيجان ضمن حلقة نفوذها الإقليمي.

اختلف الوضع اليوم، ومن غير الواضح بعد، كيف سيُؤثّر انتصار أذربيجان في المنطقة. الواضح من التصريحات الإيرانية، أخيراً، أنّ ناراً تحت الرماد في علاقات موسكو وطهران، المتنامية في ظلّ ضغوط وعقوبات غربية مع تحدّيات مشتركة بمواجهة البلدان، ويبدو أنّ آخر موقف لروسيا من ممرّ زانغيزور، دفع تحفّظات إيرانية عديدة إلى أن تطفو في السطح بعد قضية الاتفاق النووي، الذي ساهمت روسيا بإفشال المفاوضات حوله (بحسب اتهامات إيرانية)، وكذلك جرّ إيران إلى أزمة أوكرانيا.

العلاقات الروسية الإيرانية مُعقّدة ومتشابكة، تتأثّر بعوامل داخلية وخارجية عديدة، شهدت تحوّلاتٍ عديدة بين التعاون والتوتّر، والتنافس على النفوذ، ويعود تاريخ هذه العلاقات إلى قرون مضت، وتأثّرت كثيراً بالتطوّرات السياسية والاقتصادية في كلا البلدين، وكذلك بالتغيّرات الجيوسياسية في المنطقة والعالم، والمُؤكّد أنّ استمرار التناقضات بين موسكو وطهران سيظلّ يعرقل طموحات إيران الإقليمية.

يمكن القول إنّ فشل إيران في الحفاظ على نفوذها جنوب القوقاز هو نتيجة سياساتها الخارجية غير المتناسقة، التي لم تكن فعّالة في مواجهة منافسيها، مثل تركيا وأذربيجان، كما تحدّ العقوبات الدولية من قدرة طهران على الاستثمار في المنطقة وتطوير علاقاتها التجارية، وتؤثّر هذه العقوبات سالباً في الاقتصاد الإيراني، وتجعل من الصعب عليها تحقيق أهدافها، بالإضافة إلى التوسّع الإسرائيلي في المنطقة، الذي يدفع إيران إلى اتّخاذ إجراءات مضادّة. وتمثّل الشراكة الوثيقة بين روسيا وأذربيجان تحدّياً كبيراً لإيران، فتمنح أذربيجان دعماً عسكرياً واقتصادياً قوياً، ما يُعزّز قدرتها على مواجهة

في مآلات التجاذبات الدامية بين حزب الله وإسرائيل

سميرة المسالمة

تمارس إسرائيل استعراضَ قوّتها التدميرية ضدّ حزب الله في لبنان، عبر ضرباتٍ قوية وقاسيةٍ ومفاجئة له، ولبنيته العسكرية، ولبيئته الحاضنة في لبنان، واضعةً تهديدات أمينه العام حسن نصر الله، وتوعّداته المتكرّرة لإسرائيل، أمام اختباراتٍ صعبة، وإجراحاتٍ شعبية، إذ لم تستطع عمليات القصف المُتبادَل الجارية بين الطرفَين على الحدود منذ قرابة عام، أن ترجّح كفّة ميزان القوى (ولو قليلاً) لجهة الحزب الغارق في خسائره، على عكس ما صوّره إعلامه منذ بدء عمليات لإسناد حركة حماس بعد عملية «طوفان الأقصى».

ولعلّ إسرائيل تعمّدت شنّ مثل تلك الضربات المُفاجئة، غير المعروفة، أو غير المسبوقة، التي تأتي من خارج «قواعد الاشتباك» المعهودة، بخاصّة المتمثّلة بتفجير وسائل وشبكات الاتصال التي يحملها منتسبو الحزب، أعقبها قصف مبنىً من سبعة طوابق وتدميره، في معقل حزب الله في ضاحية بيروت (20 سبتمبر/ أيلول الجاري)، واستهداف اجتماع قياديين فيه، ما أودى بحياتهم، وكان ضمنهم إبراهيم عقيل القائد العسكري البارز، وهو أرفع شخصية عسكرية استهدفتها إسرائيل، خلال حربها على غزّة، بعد اغتيالها فؤاد شُكر (أواخر يوليو/ تموّز الماضي) بالطريقة ذاتها، لتأكيد قدراتها في توسيع طيف عملياتها وصولاً إلى عمق جغرافية حزب الله. وكانت تلك العمليات هي الطريقة التي انتهجها الحزب لإسناد غزّة، وبهدف تقويض أيّ محاولة منه للربط بين جبهة الشمال مع حزب الله، وجبهة الجنوب مع حركة حماس، مع منعكساتها الأمنية والاقتصادية والاجتماعية في ما يخص الطرفين، أيضاً، تهدف إسرائيل من خلال تلك العمليات تأكيد ذاتها دولةً رادعة، لاستعادة ثقة الإسرائيليين بها، وتعزيز ادّعاءاتها عن جيشها الذي «لا يُقهر» في العالم، وأيضاً هي تحاول من خلال ذلك إضعاف التهديد الذي يُشكّله حزب الله في الشمال، بخاصّة مع الضغط المتأتّي من الإسرائيليين النازحين من سكّان المناطق الحدودية، الذين يرفضون العودة إلى بيوتهم في ظلّ هذا الوضع، وهي نقطة باتت تُشكّل إجماعاً في إسرائيل، أو يمكن القول إنّها جسّرت بعض الخلافات بين قادتها، بل تُشكّل أحد أكثر الأولويات التي تتبنّاها الحكومة الإسرائيلية الهشّة.

إضافة إلى ذلك، إن هذه الحرب تهدف إلى تقويض صدقية حزب الله، الذي طالما ادّعى أنّه أنشأ حالةً من توازن الردع، وقواعد الاشتباك مع إسرائيل، وأنّ تلك الدولة باتت قاب قوسَين أو أدنى من الانهيار، وأنّها «أوهن من خيوط العنكبوت»، وأنّ صواريخه الـ150 ألفاً، تهدّد حيفا وتلّ أبيب، وكلّ المدن الإسرائيلية من الشمال إلى الجنوب. وقد يجدر التذكير بأن إسرائيل منذ اغتيالها القيادي في «حماس»، صالح العاروري، في الضاحية الجنوبية لبيروت (يناير/ كانون الثاني 2024)، باتت تستهدف استهدافاً مباشراً مربّع حزب الله الأمني، إضافة إلى استهدافها بوحشية البقاع اللبناني، والجنوب، الذي دمّرت عدداً كبيراً من قراه وبناه التحتية، وقتلت ما استطاعت من مدنيين من دون أيّ رادع أخلاقي. ولعلّ أقسى ضربة إسرائيلية تلقاها الحزب الله قبل الجولة الحالية، هي تلك التي أودت بحياة قائده العسكري فؤاد شُكر (31 يوليو/ تموز 2024)، الذي سبق بساعات قليلة عملية اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إسماعيل هنية، في طهران (1 أغسطس/ آب 2024)، الأمر الذي رأى فيه الحزب تحدّياً كبيراً له، بخاصّة أنّ إيران هي راعيته وداعمته، وهي قائدة محور «المقاومة والممانعة».

ومعلوم أنّ هذا الاستهداف الإسرائيلي لإيران لم يكن فريداً من نوعه، إذ كانت إسرائيل قصفت قنصليتها في دمشق، وقتلت أحد أهم أركان الحرس الثوري الإيراني في تلك الغارة (إبريل/ نيسان 2024)، كما استهدفت أنشطتها النووية، وسبق أن اغتالت عديداً من قيادي الحرس الثوري الإيراني. وفي السياق ذاته، كانت إسرائيل قد أغارت قبل أسبوعين (9 سبتمبر/ أيلول) على منشأة عسكرية كبيرة ومهمّة في مصياف، بواسطة قوات برّية وجوية، في عملية لافتة، وفريدة من نوعها، أدّت إلى مقتل 27 شخصاً، بين مدنيين وعسكريين، من جنسيات إيرانية ولبنانية وسورية. بعد هذه الجردة لمحصّلة التجاذبات الدامية والمدمّرة بين إسرائيل وحزب الله، بات الحزب في وضع صعب ومُعقّد، يتطلّب اجوبةً ليس من نوعٍ أنّ إسرائيل ستواجه العواقب، أو أنّ الردّ سيأتي في المكان والزمان المناسبين، فهذه العبارات لم تعد تفيد شيئاً، بل باتت موضع تندّر، إذ لم يثبت أنّ أيّ ردٍّ كان متناسباً مع هول الضربات الإسرائيلية وقسوتها، من إيران، ولا من حزب الله، ولا من الحوثيين أيضاً. باتت البيئة الحاضنة لحزب الله في لبنان اليوم في موضع ذعر، وقلق، وتساؤل عن حجم انكشافها المريع إزاء الضربات الإسرائيلية، التي باتت تطاول كلّ بيت ودكّان وحارة، وكلّ شخص، وعن حجم الاختراقات داخل بنية حزب الله، الذي فقد قادة عسكريين، مجرّبين ومتمرّسين في القتال بخاصّة في سورية، بالنظر إلى توقّف الحزب منذ إسرائيل منذ 20 عاماً. القصد أنّه أن لحزب الله، الذي تنازل أمينه العام وأقرّ بتفوق إسرائيل تكنولوجياً، أن يدرك أنّ الصراع مع إسرائيل يتطلّب أكثر من مُجرّد قوات مقاتلة ومؤمنة، فهذه قد تفيد في معارك مع ميثات شعبية معارضة مدنية أو مسلّحة بالمعدات البسيطة، وهو ما فعله في سورية، وليس مع الجيش الإسرائيلي الذي يمتلك القوّة التكنولوجية والعلمية والعسكرية والاقتصادية، وفوقها إمداداتٌ مفتوحةٌ من الولايات المتّحدة، التي ثبت أنّها مُستعدّة لدعم إسرائيل بلا حدود، بل ضمان أمنها، وهو ما حصل في تبهيت الردّ الإيراني الباهت أصلاً إبّان أفشال قصفها إسرائيل بالصواريخ (إبريل/ نيسان الماضي).

قد يفيد حزب الله، الذي أكّد أمينه العام أيضاً أنّ الصراع ضدّ إسرائيل يحتاج إلى صراع بالنفاق وبالتدريج إلى حكمة، أن يتخلّى عن ادّعاءاته، وغطرسته المضرّة، بترويج أوهام مثل «وحدة الساحات»، وإمكان زلزلة إسرائيل، وهو أمر للأسف لا يحصل إلّا في الخطابات. ما يفيد حزب الله، ويفيد لبنان، أن يترجم حزب الله ذلك، بالمصالحة مع الواقع، ومع العالم، ولا سيّما المصالحة مع الشعب السوري، بالخروج من سورية، وأيضاً الخروج من حالة أنّه دولةٌ داخل دولة في لبنان، ومن أنّه مُجرّد ذراع إقليمي لدولة خارجية بهمّها السيطرة والهيمنة على المشرق العربي فقط، لأنّ خراب سورية والعراق ولبنان لا يخدم إلا إسرائيل، كما بيّنت التجربة، وكما بيّن السلوك الإيراني في تلك الحرب، وطوال العام الماضي.

(كاتبة سورية)

> تسعى تل أبيب إلى تقويض صدقية حزب الله، الذي طالما ادّعى أنّه أنشأ حالةً من توازن الردع، وقواعد الاشتباك مع إسرائيل

إبراهيم عقيل ورفاقه في سورية

معن البياري

أول القول هنا إن سطور هذه المقالة لا تشغل نفسَها بالمرضى النفسيين، الطائفيين، ممن يتوهّمون انتسابهم إلى الثورة السورية، وإنما بأصدقاء وزملاء ومعارف، من أصحاب الرأي الرزين، ومن أهل المواقف النظيفة، ممن اصطفّوا مع شعبهم في تلك الثورة، وقد وجدوا أنفسَهم غير قادرين على التعاطف مع حزب الله في نكباته أخيراً، سيّما تصفية قيادات ميدانية وازنة في قواته، في قصفٍ إسرائيليٍّ استهدفهم في اجتماع لهم في مبنى سكنيٍّ في الضاحية الجنوبية لبيروت، بعد يومين من تفجيرات في أجهزة اتصالاتٍ بين أيدي عناصر الحزب وناسه. وفيما لا يحتاج انتصار أصحابنا هؤلاء للمقاومة الفلسطينية إلى برهانٍ أو كثير كلام، ولا يتسامحون مع أي تشكيكٍ في وقوفهم ضد كل ما يهزّ العدو الصهيوني ويربكه ويؤذيه، فإن من بالغ الوجاهة أن يجري السؤال في مجراه عن الأسباب التي تدعوهم إلى عدم التأسّف على ما لحق حزب الله، أخيراً، من خساراتٍ كبرى في قياديبه العسكريين، في نخبة المحاربين لديه، وقد سقطوا اغتيالاً في استهدافاتٍ إسرائيلية، وهم الذين كانوا يديرون ضرباتٍ صاروخيةً، موجعةً أحياناً، على أهدافٍ في كيان الاحتلال. ولن تستعصي الإجابة عن السؤال المربك، فموجزُها أن كثيرين من هؤلاء، وهم معلومون بأسمائهم، وأبرزُهم إبراهيم عقيل الذي يعرّف بأنه قائد قوة الرضوان، وهذه من نخبة قوات حزب الله، ارتكبوا فظاعاتٍ في قتالهم إلى جانب النظام السوري ضد أهل الثورة، في الزبداني وحمص والقصير والقلمون، وفي حصار حلب (2016)، وفي مواقع أخرى في الأراضي السورية، بل قادوا أكثر من حصار لمدنيين سوريين، بينهم أطفال ومسنّون، بعد التدخّل العسكري المعلن لحزب الله لمعاونة النظام في عملياته العسكرية.

لأن الشماتة شعورٌ مرذول، وغير إنساني بداهةً، ولأن الذين جهروا به سفهاء، اكتفى بعضٌ طيّبٌ من نخبة سورية بالتعريف بالذي اقترفه أولئك القادة في حزب الله في سورية، والذين قُتلوا في الاعتداء الإسرائيلي الخميس الماضي (قتل شقيق أحدهم في القصير). وهنا، يجوز استغراب أن يجري هذا بعد موت هؤلاء، في عملية إسرائيلية غادرة، وكان الأوْلى التشهير بهم وهم أحياء. ولأن أفق الثورة السورية هو العدالة وحكم القانون، وليس التعاطي بعقلية الثأر الأعمى، فإن ما كان يلزم أن يصير ليس انتظار عدوان إسرائيلي على الضاحية الجنوبية يُميت إبراهيم عقيل وعباس مسلماني وأحمد وهبي ورفاقهم، وإنما أن تُهيّأ ملفاتٌ توثّق ما اقترفه هؤلاء بسوريين معلومين، ومسلّحة بدلائل من شهودٍ وعارفين، ليكون في الوسع التشهير القضائي بهم، والمطالبة بمحاكماتٍ لهم، بالاستناد إلى قرائن تعزّز اتهاماتٍ محدّدة، متعيّنة بالزمان والمكان، فليس الأمر أن يُساق كلامٌ ثم كلام عن كثير قارفه هؤلاء من حزب الله في سوريين مدنيين، على صفحات التواصل الاجتماعي، عندما تقتلهم إسرائيل، وإنما أن توظّف كفاءاتٌ قانونيةٌ سورية قدراتها في تجهيز اللازم من مباشر إجراءات الدعاوى والتقاضي، فليست ساحة معركة السوريين مع النظام وشبّيحته والقوى التي ساندته ميدانياً ملاعب السوشيال ميديا، مع أهمية هذه في الشأن الإعلامي والتواصلي، وإنما هي ساحات إحقاق الحق في مؤسّسات العدالة.

لقائل أن يحاجج في هذا، ويذكّر بأن نقصان الثقة الباهظ بأجهزة العدالة الدولية في الشأن السوري لا يتيح مزاجاً يأخذ بإنجاز اللازم من توثيق ملفّات مضبوطة الوقائع والتفاصيل، للترافع القضائي، أو أقلّه للترافع الإعلامي في مساجلاتٍ مع حزب الله الذي لا يتعامل مع الموضوع السوري وفقاً لمنطق الحق والعدالة والإنصاف، ويُؤثر البقاء في مربّع محاربته الإرهاب في مواجهة مؤامرةٍ على نظام الممانعة في دمشق. ولمّا كان الأخذ والردّ مع هذا الكلام وحواشيه قد استنزف أطراف الجدال، فإن مغادرة هذه المساحة إلى مساحة القانون هو ما كان يلزم تأكيده، والأخذُ به، والمُضيّ فيه، وفي ظنّ صاحب هذه الكلمات أن المعارضات السورية صرفت جهداً كثيراً في ما لا نفع منه، وغيّبت البعد المتحدّث عنه هنا، مع كل ما لمفاهيم العدالة والمحاسبة وسيادة القانون من ضروراتٍ موجبة... كان من شديد الأهمية أن يعرف السوريون، وغيرُهم، ما يُتّهم به إبراهيم عقيل ورفاقُه قبل أن يرحلوا شهداء في جريمةٍ إسرائيليةٍ مدانة، بشهاداتٍ ومعطياتٍ موثوقة. ويبقى من شديد الأهمية أن لا يُصاب أهل الثورة السورية بمرض الشماتة المبغوض.

ضربة تكنولوجية ونفسية

سامح راشد

بات واضحاً أنّ لدى إسرائيل من المعلومات الاستخبارية عن حزب الله اللبناني ما يتيح لها توجيه ضرباتٍ شاملة وعميقة إلى قوّاته، وبنيتِه التحتيّة والفوقية، ليس العسكرية فقط، وإنّما المدنية أيضاً. ولو أرادت تلّ أبيب تعطيل شبكة اتصالات حزب الله بالفعل، وبشكل مدمّر لهياكل الحزب التنظيمية وغرف عملياته، ومراكز القيادة والسيطرة التابعة له، لتمكّنت من ذلك بسهولة، وربّما لا يتخيّلها أحد.

لكن، واضح تماماً أنّ إسرائيل ليست في وارد حرب شاملةٍ ومفتوحةٍ مع الحزب حالياً، ففي الحسابات الإسرائيلية (والأميركية قبلها) ليس هذا وقت حرب شاملة مع حزب الله، وبالطبع مع إيران. فالجيش الإسرائيلي لا يزال يُحصي خسائرَه المادّية والمعنوية الناجمة عن «طوفان الأقصى»، وما تبعه من حرب استنزفت كثيراً من القدرات العسكرية لتلّ أبيب، وكسرت هيبةَ جيشها وتماسُكَه. بينما في الولايات المتّحدة لم يتبقّ سوى أقلّ من شهرين على التصويت في الانتخابات الرئاسية، ولا تتحمّل واشنطن اندلاع حربٍ شاملة في الشرق الأوسط في هذا التوقيت شديد الحرج للمُرشّحين الرئاسيين، فضلاً عن التأثير المباشر في الإدارة الديمقراطية الحالية.

لا يعني ذلك كلّه أنّ أهداف إسرائيل تنحصر في إسقاط عدد من قيادات الحزب وعناصره، فهي بالفعل تباشر عمليات تصفيةٍ واصطيادٍ لعناصر الحزب وكوادره، وزادت وتيرتها في الأشهر الماضية. كما أنّ خسائرَ تفجير أجهزة الاتصال طاولت كثيرين من المدنيين، ممّا زاد من بشاعة صورة إسرائيل، وأضاف إلى سجلّ جرائمها ضدّ الإنسانية المُتخَم أصلاً، ثمّ تضخّم كثيراً بعد 7 أكتوبر (2023).

يبدأ فهم الدوافع من قراءة النتائج، والنتيجة الأولى التي ترتّبت من العملية الإسرائيلية، هي بثّ حالة ارتباك تنظيمي في صفوف حزب الله، وإصابة قياداته بالصدمة إزاء الانكشاف الأمني والتقني الخطير، فضلاً عن ضرب الروح المعنوية للعناصر المنتمية إلى قواعد الحزب والمتعاطفين معه داخل المجتمع اللبناني. بالإضافة إلى ذلك، ستستفيد إسرائيل من المدى الزمني الذي سيحتاج إليه حزب الله لاكتشاف الخونة والعملاء داخل صفوفه، ثمّ إعادة ترتيب آليات العمل وديناميات التواصل والسيطرة والتوجيه، سواء العملياتية أو الإدارية، خصوصاً على المستويات القيادية.

في الأشهر القليلة الماضية، كانت المناوشات بين إسرائيل وحزب الله محكومةً بقاعدة «الردّ بحجم الفعل». وبعد نكسة «7 أكتوبر»، ثمّ انتكاسات الحرب في غزّة، تحاول إسرائيل استعادة هيبتها العسكرية وتأكيد امتلاكها أدوات وقدرات تكفل لها إنزال دمار واسع بقدرات الحزب، وبناء العسكرية واللوجستية والبشرية. مع تثبيت أكثر قواعد الاشتباك أهمّية، المعمول بها مرحلياً: «الإضرار وليس الدمار».

والمعنى الأبعد في تلك الرسالة موجّهٌ إلى الأطراف الأخرى، التي ربّما باتت تعتبر إسرائيل ضعيفةً أو أقلّ قوّةً وإمكاناتٍ ممّا كانت تبدو. فالبعد الإعلامي والنفسي في الضربات والاستهدافات المتتالية في الأيّام الماضية، غرضه أن يُراجع كلّ طرفٍ حساباته كثيراً، قبل أن يبني حساباته على الهزّة العنيفة التي أحدثها «طوفان الأقصى». إلى حدّ أنّه كاد ينسف نظرية الردع الإسرائيلي تماماً. ونجاح هذه الرهانات الإسرائيلية مشروط بعقلانية مقابلة من جانب حزب الله، ومن ورائه إيران، وهو ما سيتكشّف في الأيّام المُقبلة.

الهيّاشي زمّال... المُترشّح السجين

المهدي مبروك

يتابع الرأي العام التونسي تطوّرات محنة المُترشّح للانتخابات الرئاسية التي تعقد بعد ثلاثة أسابيع تقريباً، جاء الهيّاشي زمّال إلى السياسة متأخّراً، جرفته رياح الثورة والقت به في لجّ السياسة وفوران حقلها، حين كان الحقل تقريباً فارغاً، وتنشيط بدخله من يريد من دون أن تتنابه هواجسُ ومخاوف. اقتحمه الهواة والمحترفون والمناضلون والمتسلّقون والفارّون من العدالة، وهو أمر طبيعي تمرّ به جميع الثورات. بدأ بدول أخرى تسعى طهران إلى تعزيز نفوذها فيها، كما أنّ تغير الوضع المريح الذي تمتّعت به إيران في جنوب القوقاز على مدى العقود الثلاثة الماضية لم يأت التقى فيه جمعٌ غفيرٌ ممّن ينتمون إلى مشارب أحياناً متناقضة، غير أنّ ما يجمعهم هو «التصدّي لمشروع النهضة»، كان عليهم أن يخلقوا العفريت، حتّى يلهوا فيما بعد بمطاردته. وفعلاً، كان لهم ذلك، عوض أن ينهمك الفرقاء في بناء تجربة الانتقال الديمقراطي التي تحتاج الجميع، وأن يتفرّغوا شيعاً غير متكافئين بالخصومات السياسية، بل تعادوا عداءً مقيتاً.

كان الحقل السياسي، الذي تشكّل بعد الثورة، مُغرياً بكلّ المقاييس، وهو الذي حرّر الجميع، وجعل النضال السياسي بلا تكلفة؛ لا خوف ولا هم يحزنون. بإمكان أي «مناضل» أن يرتكب جميع المخالفات الممكنة، وحتّى بعض الحماقات، من دون خشية على حرّيته، حتّى وصل الأمر إلى تعنيف السياسيين وتعطيل المرافق العامّة. لقد رأينا زعماء أحزاب وأقطاب معارضة يعتصمون لمنع مرور قطار، أو لقطع طريق، أو بسبب الماء أو الكهرباء، أو لغلق مستشفيات... إلخ. في هذا الحقل السياسي، الذي رُفعت فيه الأسبجة دخل الهيّاشي زمّال حزب نداء تونس، لا احد يعرف له ماضياً سياسياً ما عدا تسريبات أنّه كان عضواً في حزب التجمع الدستوري، الذي حكم به الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي، وخُلّ بقرار قضائي بُعيد الثورة. ينتمي زمّال إلى محافظة سليانة، وهي جهة داخلية محرومة، فيما بعد «بمناطق الظلّ»، زارها في بداية عهدته، وأطلق من إحدى قراها الصغيرة (الزواكرة والبرامة) مبادرته «الصندوق الوطني للتضامن»، الذي عرف بـ 26 - 26، لإعانة الفقراء والمحتاجين، وتنشيط غرى التضامن، قبل أن يتحوّل بعد الثورة رمزاً للفساد والزبونية. نشأ زمّال بقرية المنصورة، وهي على قرب أميال من تلك المدائر (الأحياء)، غير أنّه كان متميّزاً في جلّ مراحل تعليمه، وهو من وسط عائلي متواضع المورد. يذكر هو هذا في إحدى خطبه إلى الشعب التونسي.

ارتقى زمّال بسرعة في سلّم المناصب السياسية، وساعدته مكانته الاجتماعية والاقتصادية في صعوده السريع، فبعد هذه المدّة القصيرة انتُخب نائباً في البرلمان الذي حلّه الرئيس قيس سعيّد، بعد انقلابه يوم 25 يوليو (2021)، ظلّ العيّاشي زمّال بعيداً نسبياً عن الأضواء، خصوصاً في مشهد طغت عليه الصراعات الحادّة بين الكتل البرلمانية، التي لم تخلُ من ملاسنات ومشاحنات عطّلت (بين حين وآخر) سير أشغال المجلس. كانت كلّها تبريرات استغلّها سعيّد لغلق مجلس النواب بدبّابة، ستظلّ محفورة في ذاكرة التونسيين، غير أنّ وسائل التواصل الاجتماعي عادت، أخيراً، إلى البحث في أرشيف الرجل (زمّال) السمعي والبصري، لتكتشف عن المواقف، منها تصدّيه للعبث الذي كانت تأتي به نائبة البرلمان آنذاك، وزعيمة الحزب الدستوري الحرّ، عبير موسي، والغريب أنّ الصامتين حالياً في السجن تلاحقهم تهم عديدة جُلّها سياسية. فالأولى متهمة بتلب الهيئة الانتخابية، في حين يُحاكم الثاني بتهم تتعلّق بتزوير التزكيات الانتخابية. ينفي الاثنان هذه التهم كلّها، خصوصاً أنّ معارضي الرئيس لم يسلم أحد منهم من الاتهامات.

لم تستطع الحملة الانتخابية تعبئة الرأي العام للمشاركة الواسعة في هذه الانتخابات، مع افتقادها أي رهانات انتخابية. كما بدت جهود الهيئة في تعبئة المواطنين ضعيفة، خصوصاً في ظلّ تفاني جُلّ القنوات الإذاعية والتلفزية الخوض في الشأن السياسي، والانتخابات خصوصاً، منذ الانقلاب، ما صحّر المشهد الإعلامي نهائياً، فتحولت جُلّ القنوات واجهةً لمختلف أشكال الإشهار والتسويق لأدوات الطبخ والتجميل في ساعات الذروة، التي كانت البرامج السياسية طوال عشرية الانتقال تستمرّ فيها إلى ساعات عديدة. في ظلّ هذه الحملة الباهتة والتضييقات، التي طاولت المُرشّح السجين زمّال، علاوة على بعض عيوب أعضاء فريق حملته، لم يرتقِ الرجل (زمّال) السمعي والبصري، السجين خصوصاً، وهو يفتقد إلى حزب سياسي قوي يسنده، فحتّى «عازمون»، حركته التي أسّسها في يونيو/ حزيران 2022، لم يشتدّ عودُها بعد.

ثمّة أمثلة عديدة لرؤساء غادروا السجن مباشرة بعد الإعلان عن نتائج الانتخابات، ليلتحقوا بقصر الرئاسة، ولكن تبدو الحالة التونسية عصيّة على هذا السيناريو. يثير المُترشّح السجين تعاطفاً مهمّاً أخلاقياً ومفيداً، وقد يتحوّل قوّة انتخابية إذا توفّرت شروط ذلك.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

> ارتقى زمال بسرعة في سلّم المناصب السياسية، وساعدته مكانته الاجتماعية والاقتصادية

إصلاح الدبلوماسية العالمية الفاشلة

امتياب بيهار

أدّى انفجار في مستشفى الأهلي العربي في غزّة، في أكتوبر/تشرين الأول 2023، إلى مقتل 471 رجلاً وامرأةً وطفلاً. كانت المجزرة مروّعة. اذكر أنّي فكّرت: «لن يستطيع أحدٌ تجاهل الموقف، بغضّ النظر عمّن تسبّب في الانفجار، على الأقلّ سيُجبر ما حدث العالمَ على التحرّك»، ولكنّي كنت مخطئاً.

في اليوم التالي مباشرةً، حتّى عندما قالت «بي بي سي» إنّ «أجزاء من الجثث لا تزال تُجمع وسط مرائب مغطّاة بالدماء، منتشرة حول المجمّع»، لم يستطع مجلس الأمن التابع للأمم المتّحدة التحرّك. قدّمت البرازيل قراراً كان من شأنه إدانة هجوم حركة حماس، والدعوة إلى الإفراج الفوري عن الرهائن الإسرائيليين، لكنّ الولايات المتّحدة استخدمت حقّ النقض (فيتو) لأنّ الدعوة إلى وقف إطلاق النار من أجل إيصال المساعدات الإنسانية المصاحبة للقرار لم تكن كافيةً لتلبية مصالح حليفتها إسرائيل. وبعد مرور أيّام، صوّتت الجمعية العامة للأمم المتّحد

لبنان في فصل جديد من حرب الإبادة

معين الطاهر

مع اقتراب حرب الإبادة التي يشنّها الكيان الصهيوني على الشعب الفلسطيني في غزّة من إتمام عام، باتت أهدافها أكثرَ وضوحاً، واختلفت عن تلك التي أُعلنت في بدايتها. كما اتّسعت آفاقها، وتعدّدت جبهاتها، وطال مداها، واشتدّت قسوتها وضراوتها، وانعدمت فيها المعايير الإنسانية والأخلاقية، واخترقت ما كانت توصف بـ«الخطوط الحمراء»، وبات من المُتعذّر توقّع حدود زمنية لنهايتها، أو شروط واضحة لوقفها، وسط صمت دولي، وعجز رسمي عربي، ومشاركة أميركية كاملة في أدقّ تفاصيلها.

ثمّة سمات باتت واضحةً للمرحلة الجديدة، فهي مرحلةٌ أخطر وأقسى، وستستغرق وقتاً أطول ممّا سبق، وتعكس تغيّراً جذرياً في أهداف الحرب، التي أعلنتها مختلف الأطراف في بدايتها، إذ اختفت الأهداف القديمة، وحلّ محلّها ما كان مُضمَراً. أعلن العدوّ أهدافه المُحدَّدة بالقضاء على حركة حماس، وبنزْع سلاحها، وباستعادة الأسرى، ولكنّه لم يُحقّق نجاحاً كاملاً في أيّ منها، فما عادت مسألة أسراه أولويةً له، وأدرك أنّ نزْعَ سلاح المقاومة، وتدمير بنيتها التحتية، يحتاجان إلى سنوات سيتعرّض خلالها لحرب استنزاف طويلة في غزّة، وهو ما يُخطّط له ببقائه فيها، وتهجير سكّان شمال القطاع وإعادة استيطانه، وتحويل غزّةَ مكاناً غير قابل للحياة البشرية، ولعلّه الأمر الوحيد الذي نجح في تحقيقه.

على المستوى العسكري، وبعد قتال عنيف دام قرابة العام، سجّلت المقاومة صموداً أسطورياً، ومآثرَ تُسجَّل في تاريخ الحروب، على الرغم من المعاناة الإنسانية التي لا توصف، وفاق أداؤها القتالي التوقّعات كلّها، إلّا أنّ جبهة غزّة تتحوّل تدريجياً إلى ثانوية، يبقى فيها الجيش الإسرائيلي في نقاط الارتكاز التي أسّسها على طول الحزام الحدودي، وفي محورَي نتساريم وصلاح الدين، ويحتفظ فيها بعدد أقلّ من قواته (فرقة عسكرية واحدة بدلاً من عشر فِرَق)، مُعزَّزةً بسلاح الجوّ وبالمُسيَّرات، ليشنّ منهما غاراته على السكّان، والمقاومة، التي ستستمرّ أيضاً في استنزاف الجيش الإسرائيلي دفاعاً أو هجوماً، كلّما لاحت لها الفرصة، وبوتيرة متفاوتة. وسيواصل العدو تنفيذ خطط التهجير والحصار والتجويع، وإعاقة أيّ جهود لإعادة الإعمار أو الإغاثة. كانت أهداف المقاومة المُعلَنة تبييض السجون الصهيونية، عبر عملية تبادل واسعة للأسرى، ووقف حرب الإبادة الجماعية، وتحقيق وقف شامل لإطلاق النار يُؤدّي إلى انسحاب كامل للجيش الإسرائيلي من غزّة، تمهيداً لإعادة إعمارها. ويُلاحَظ هنا أنّ ثمّة مرونة واضحة طرأت في موقف المقاومة من مسألة إدارة غزّة، استجابة لمعاناة أهلها في حال تحقّق الانسحاب الإسرائيلي، لكنّ هذا الموقف ما زال يصطدم بالموقفَين، الإسرائيلي والأميركي، وبالموقف العربي الرسمي، وبموقف السلطة الفلسطينية المُتردّد والمائع والمنتظر للإملاءات الخارجية. بإيجاز، يمكن القول إنّ حسم هذه المعركة، وتحقيق هذه الأهداف، بات مرهوناً باستمرار المقاومة، وصمود غزّة، ونتائج الحرب على الجبهات الأخرى.

> تتحوّل جبهة غزّة تدريجياً إلى ثانوية، ليبقى الجيش الإسرائيلي في نقاط ارتكاز يحتفظ فيها بعدد أقلّ من قواته
>
> على حزب الله تجاوز قواعد الاشتباك الحالية، ورسم قواعد تبرز قدرته على الردع، ما قد يُؤدّي إلى وقف الحرب أو يُحوّلها إلى مواجهة شاملة

ثمّة جبهة أخرى مشتعلة هي جبهة الضفّة الغربية، بما فيها مدينة القدس، تبذل فيها المقاومة جهداً كبيراً، وأهم ما يميّزها صمود الشعب الفلسطيني فيها، وتمسّكه بأرضه، وهو العامل الحاسم في التصدّي لمخطّط العدو في الاستيلاء عليها وضمّها، وهذا مخطّط بلغ مراحلَ متقدّمةً برفض الاحتلال الاعتراف بدولة فلسطينية بين النهر والبحر، وتعزيز الاستيطان، وتسليح المستوطنين، ودعم هجماتهم اليومية على المدن والقرى. ومن البديهي القول إنّ الحرب الكُبرى هي تلك التي تُشنّ على الضفّة الغربية والقدس، والتي تمثّل طليعةَ الأهداف الصهيونية المُضمَرة لحرب الإبادة الجماعية.

منذ اليوم الثاني لـ«طوفان الأقصى»، تشكّلت جبهات عُرفت باسم جبهات الإسناد للمقاومة في غزّة، أبرزها جبهة اليمن، التي أغلقت البحر الأحمر في وجه السفن المتّجهة إلى إسرائيل، ونجحت، أحياناً، في ضرب مركز الكيان بصواريخ باليستية ومُسيَّرات، وجبهة لبنان، التي حاول فيها حزب الله وضع قواعدَ للاشتباك تجنّبه الدخول في حرب شاملة، لكنّه يرهق فيها العدو بقصف مواقعه العسكرية القريبة من الحدود، مسبّباً تهجير سكّان مستوطنات الشمال، ومتحمّلاً، في المقابل، كلفةَ الردّ الصهيوني على القرى اللبنانية الحدودية، وهي قواعد كان يتجاوزها الطرفان أحياناً تجاوزاً محدوداً، ثمّ لا يلبثان أن يعودا إليها سريعاً. الأمر الذي أتاح لحزب الله أن يكون شريكاً في الحرب التي يخوضها الشعب الفلسطيني، وأن يربط وقف إطلاق النار على الجبهة اللبنانية بوقف إطلاق النار في غزّة، وهو موقف يُحسب له.

مارست الولايات المتحدة، خلال العام الماضي، ضغطاً على الجيش الإسرائيلي، لمنعه من خوض حرب شاملة في الجبهة اللبنانية، وكان ثمّة مصلحة إسرائيلية في ذلك للتفرّغ لجبهة القتال المشتعلة في غزّة والضفّة الغربية، وضمان استمرار تدفّق السلاح واستمرار الدعم الأميركيَّين، اللذين شكّلا وقود الحرب، على الرغم من رغبة قيادة الجيش الإسرائيلي منذ الأيّام الأولى في توجيه ضربات كبيرة إلى قدرات الحزب، وصولاً إلى خوض حرب شاملة ضدّه، انطلاقاً من رغبتهم في حسم هذه المسألة في وقتٍ يتّحد فيه المجتمع الإسرائيلي حول الحرب ويُبدي استعداداً لها.

لا يمكن أن تكون قواعد الاشتباك فاعلةً إذا التزم بها طرف واحد، فهي تحتاج إلى اتّفاق ضمني بين جميع الأطراف، وعلى الرغم من استمرار الحزب إعلانه الالتزام بقواعد الاشتباك السابقة، التي تتيح له ردّاً محدوداً على أيّ تجاوز إسرائيلي، من دون الانزلاق إلى مواجهة أوسع، وأكّد ذلك حسن نصر الله في خطبته التي ألقاها عقب تفجيرات أجهزة الاتصال، وهو موقف يرتبط بدور الإسناد الذي رسمه الحزب لنفسه في الحرب، والمرتبط بتقديراته أنّ قوّة الردع التي راكمها عبر الأعوام الماضية ستحول دون إقدام العدوّ على توسيع المواجهات، كما أنّ ثمّة مُحدّدات تحول دون قرار الحزب تجاوز قواعد الاشتباك الحالية من جهته، مرتبطة بامتداداته الخارجية وحسابات الداخل اللبناني.

تأخّر حزب الله في إدراك ملامح المرحلة الجديدة، وفي تلمّس السياسة الصهيونية فيها، والمرتكزة على الدعم الأميركي غير المحدود، إذ ثمّة توافق بين القيادتَين السياسية والعسكرية على توجيه ضربة إلى قدرات الحزب، ثمّة اتّفاق بين القيادة السياسية والعسكرية على ضرب قدرات حزب الله، وما يُقال حول خلاف بنيامين نتنياهو ويوآف غالانت لا علاقة له من قريب أو من بعيد بالحرب على لبنان، إنّما هو مرتبط بقضية تجنيد اليهود المتديّنين، وثمّة ضغط على الحكومة الإسرائيلية لإعادة مُهجّري الشمال، بعد إعادة جزء كبير من مهجّري الجنوب في المستوطنات القريبة من غزّة، كما أنّ نتنياهو يعمل على إدامة الحرب وفق رؤية مختلفة عن الأهداف التي أعلنها في بدايتها، تتلخّص في رغبته في تغيير ملامح الشرق الأوسط، والبقاء في غزّة، وضمّ الضفّة الغربية، وإرغام النظام العربي على التطبيع والدخول في محور في مواجهة إيران بقيادة إسرائيلية. يتمثّل المجال المفتوح له في توسيع جبهات الضفّة الغربية ولبنان، بعد استكمال جزء كبير من مهمّات الجيش الإسرائيلي في غزّة.

ما زالت الإدارة الأميركية تضغط على الحكومة الإسرائيلية لعدم خوض حرب شاملة، خوفاً من تأثير الحرب على نتائج الانتخابات الرئاسية الأميركية. لذا يمكن القول إنّ الخطط العملياتية للجيش الإسرائيلي ستتمثّل في إنهاء قواعد الاشتباك السابقة، والضغط على حزب الله عبر اغتيال قياداته، وضرب مواقعه، بما فيها التي في بيروت والبقاع، بغرض إرغامه على إنهاء جبهة الإسناد، وفك ارتباط الجبهة اللبنانية مع غزة، والقبول بشروطه التي عرضها المبعوث الأميركي، عاموس هوكشتاين، والقاضية بانسحابه إلى ما وراء الليطاني. لذا، من المتوقّع أن تتزايد الضربات العسكرية الإسرائيلية بما يشبه الحرب الشاملة، لتدمير البنية التحتية للحزب، وضرب قدراته مستخدماً سلاح الجوّ استخداماً رئيساً.

تطوّر الحرب في جبهة لبنان يتوقّف على ردّة فعل حزب الله، الذي يحتاج إلى مقاربة جديدة لقواعد الاشتباك التي يتبنّاها، إذ إنّ فاعلية قوّة الردع التي يمتلكها تجاه المواقع العسكرية الإسرائيلية المُحصَّنة والمحمية محدودة نسبياً، وكما أشار أمين عام الحزب، حسن نصر الله، يبحث مقاتلوه بالسراج والفتيلة عن هدف يضربونه، في حين أنّ قوّة الردع الرئيسة لديه تتمثّل في قدرته على ضرب البنى التحتية الإسرائيلية والمدن والمستوطنات الكبرى في العمق الإسرائيلي. على حزب الله أن يتجاوز قواعد الاشتباك الحالية، وأن يرسم قواعد أخرى تبرز قدرته الحقيقية على الردع، وهو ما قد يُؤدّي إلى وقف الحرب أو يُحوّلها إلى مواجهة شاملة وحرب طويلة وضارية، لكنّه إن لم يتّجه نحوها اليوم باختياره فستُفرض عليه لاحقاً، بعد أن يُستنزَف عبر ضربات متلاحقة، يُخشى من الردّ عليها بمثلها خوفاً من تورّط حليفه الرئيس في حرب إقليمية، أو تحسّباً من تراجع مشروعه على المستوى المحلّي، نتيجة تأثّر المعادلة السياسية الداخلية بموازين قوى مُستجِدّة، نتيجةً لهذه الحرب، إذ إنّ ضرب قدرات حزب الله، وتغيير المعادلة السياسية في لبنان، خيار لا بديل عنه في الاستراتيجية الصهيونية، وإدراك حتمية المواجهة معها سيكون بداية التغيير المأمول واستخدام صحيح لقدرة الردع المتوفّرة. مرّة أخرى نقول إنّ ما يُخطّط له العدو ليس قدراً، ويمكن مواجهته وهزيمته، إذا أدركنا (كما يدرك هو) أنّ هذه المعركة تتجاوز حدود معارك الإسناد، إذ هي معركة وجود لأمّتنا كلّها.

(كاتب فلسطيني)

«الإخوان» المصريون بين التسوية والمنفى

خيري عمر

على فترات متقطّعة، تحاول جماعة الإخوان المسلمين المصرية اقتراحَ معالجة مشكلاتها مع الحكومة المصرية، غير أنّ ما ظهر، مع تكرار تلك المحاولات، تباين الخيارات السياسية بين المرونة النسبية والرفض المطلق للحوار مع الدولة. لا تعكس هذه الحالة مُتغيّراً جديداً في تصوّرات الجماعة، بقدر ما تثير التساؤل عن حقيقة رغباتها، في ظلّ تعرّضها لتحدّيات ولأعباء التغيّرات المتسارعة في التركيبة الداخلية، والأعباء المرتبطة بالبيئة الجديدة وتداعياتها المستقبلية.

ظهرت المناقشات بشأن خيارات الإخوان المسلمين خلال النصف الأول من سبتمبر/ أيلول 2024، فانشغلت بموضوع العلاقة مع الدولة، وبدت التصريحات أكثر تبايناً، فبينما ينصرف فريق إخوان سايت إلى البحث عن صيغة هادئة لمراجعة المواقف تجاه الحكومة المصرية، انشغلت المجموعة الأخرى (إخوان أون لاين) بالحديث عن مشروعية تمثيل الجماعة ورفض مبادرة منسوبة إلى السجناء والمحبوسين احتياطياً. بدت هذه المشاركة محاكاةً لظهور آخر في الشهر نفسه، استطلعت فيه هيئة البثّ البريطانية مواقفَ جماعة الإخوان من بعض القضايا، فأجرت حواراً صحافياً مع الناطق الإعلامي، طلعت فهمي، بدا محتواه عامّاً ولم يقترب جدّياً من الشؤون الداخلية للجماعة أو فحص المواقف السياسية، وذلك بخلاف استقصاء لقاء رئيس القسم السياسي، حلمي الجزار، عن العلاقة مع الحكومة المصرية والعلاقات الداخلية للجماعة ومقرّ قيادتها في المنفى. ورغم تزامن المقابلتين، اختلف توزيع الأسئلة، فبينما استغرقت الأسئلة لفريق «إخوان أون لاين» بموضوع العلاقات التركية المصرية، ثمّ قليلاً حول موقف الجماعة من الحكومة المصرية، كانت الأسئلة الموجّهة إلى فريق «إخوان سايت» متنوعةً، رتّبت على نحو يكشف المواقف تجاه أنشطة كثيرة، كان أهمّها موضوع العلاقة مع مصر والانقسام الداخلي ثمّ الوضع في تركيا. ربّما ترجع صياغة الأسئلة وترتيبها إلى اختلاف أولويات كلّ فريق، سواء تجاه المصالحة/ التسوية أو اختلاف الحساسية للتغيّرات السياسية، خصوصاً ما يرتبط بتطوّر علاقات مصر وتركيا وتفاقم الأزمة الداخلية، لتعكس ثنائية القيادة في لندن وإسطنبول، وتثبيت صورتها قيادةً منفىً أو تكثيف دور التنظيم العالمي في الترتيبات الراهنة على حساب أولويات الفروع القطرية.

> حالة المنفى بمثابة مُختبَر لقدرة قيادة الإخوان المسلمين المصريين على إدارة عمليات مُتعدّدة الأبعاد وتسييرها، بين الجماعة ودولة المقرّ ودولة الجنسية
>
> يتوقّف مآل قيادة الإخوان في المنفى على تسارع آثار القيود الخارجية مقارنة بأريحية علاقتها مع الحكومة المصرية

وكان لافتاً أنّه على الرغم من الترويج الواسع للمقابلة التلفزيونية وتتابع التصريحات حولها، بقي التفاعل محصوراً داخل الجماعة من دون تحوّل أيّ من المشاركات إلى ظاهرة على وسائل التواصل الاجتماعي. تبدو هذه الحالة غير مُتأثرة بالحروب الجارية، بقدر ترابطها مع تداعيات تآكل النخبة وانحسار جاذبية التنظيم، وبغضّ النظر عن ضآلة الأفكار الجديدة، لا يحظى المتحدّثون الإعلاميون بقدراتٍ مناسبةٍ لقراءة واقع الجماعة ومحيطها السياسي.

وباستثناءات قليلة، تتناسق مواقف مجموعات الإخوان المسلمين، ويتبنّى الاتجاه العام للخطاب السياسي حزمة مطالب، هي أقرب إلى شروط مسبقة، تتعلّق في معظمها بالمطالبة بإطلاق سراح السجناء، فلدى مراجعة بيانات «الإخوان» وتصريحاتهم حول ذكرى رابعة في 2024، بدا التلاقي واضحاً على وصف النظام بالتابع لإسرائيل والمتضامن مع مشروعها، وهي من المصادر الأساسية لتثقيف الأعضاء على مفاهيم المفاصلة، ما يمثل انزياحاً نحو قناعات الفريق الثالث (المكتب العام) وتطلّعاته العنيفة، ما يشكّل امتداداً لتطلّعات إسقاط الحكومة ومحاسبة المتورّطين في فضّ اعتصامَي ميداني رابعة والنهضة (أغسطس/ آب 2013).

وعلى العموم، لا يقتصر الانقسام على خلافات لوائح، فمع تزايد ظاهرة انحسار النخبة تحوّلت الأزمات الداخلية إلى انقساماتٍ حقيقية، ولم تعد تقتصر على النزاع بشأن التمثيل السياسي، فقد استقرّ بقاء ثلاث مجموعات على طريقة المزج بين أفكار حسن البنا وسيّد قطب، وأخيراً مقولات محمد كمال، لتعكس مكوّنات الخلطة الجديدة أولويات كلّ مجموعة وشِدَّة موقفها من الدولة، بين القبول المشروط والاتهام بالخيانة، لتحول هذه البيئة دون إنضاج المواقف الانفتاحية، ورغم اقتراب مصطلح التسوية من الواقعية السياسية، لكنّ طرحه بديلاً من المبادرة يعكس عدم قدرة الجماعة في تعويض مفهوم «الشرعية»، وتفضيل انتظار حدوث تغيّرات خارجية، كتداعيات أخطاء الحكومة، والاحتقان الشعبي أو الضغوط الدولية. على أيّ حال، تواجه حركة الإخوان المسلمين مشكلة غياب نموذج أو صيغة لمراجعة الموروث الثقافي للحدّ من هيمنة الأيديولوجيا على التصرفات اليومية، بحيث تميل الجماعة، بشكل دائم، إلى الاحتماء بالطابع الرسالي وتوظيف التلازم بين الدعوي والحركي لتعويض التفكّك الداخلي، لتكون الشمولية قيداً على الواقعية السياسية، ومثاراً للخلاف حول أولوية الفصل بين السياسي والدعوي، في هذه الجزئية، ظلّ تناول مكونات الجماعة متمسّكاً بالمرجعية الفكرية فيما اختلفت بشأن النظر إليها من ناحية الوظائف السياسية. ونظراً إلى انحسار التطوير على حسن البنا، لم تبرح تصريحات متحدّثي الجماعة مستوى الكلام عن الرغبة في تجنّب الصراع على السلطة (رئاسة الدولة) لفترة زمنية، مع التمسّك بالحقّ الدستوري في المشاركة السياسية في الانتخابات العامّة. وبغضّ النظر عن وقوع التصريحات في أسر النصوص التقليدية، تراجعت تصريحات فريق «إخوان سايت»، أخيراً، عن تصريحات سابقة بالامتناع عن المشاركة في الانتخابات. قد يعكس هذا التأرجح غياب قرار لضبط التوجّه نحو التسوية أو المصالحة، وأنّ ما يجري من تصريحاتٍ، تبدو في طبيعتها اختبارية.

تُعطي حالة المنفى فرصةً إضافيةً لفهم سياقات الإخوان المسلمين، فكما هي التجربة الأولى لفرع الإخوان المصريين، فإنّها بمثابة مُختبَر لقدرة القيادة على إدارة عمليات مُتعدّدة الأبعاد وتسييرها، بين الجماعة ودولة المقرّ ودولة الجنسية، وهي مُوازنة تواجه صعوبات في ظلّ عدم الاستقرار الإقليمي وحساسية الحكومات الوطنية ضدّ المعارضة من المنفى، وتكتمل هذه القيود مع معاناة الإسلاميين في أوروبا من الاغتراب الاجتماعي، وتأثيره على النموذج الدعوي، بحيث لا تعكس تجارب الهجرة حالة تطوّرية للإسلام السياسي، بقدر ما يساهم التعايش في الإدماج التدريجي.

ورغم استمرار ترتيبات البقاء في المنفى، ليس «الإخوان» على موقفٍ واحد. وبينما يستقرّ موقف مجموعة إخوان أون لاين على تركز الجماعة في داخل مصر، ولا يعدو وجود ممثليهم في الخارج إلا مرحلةً عارضةً، تحاول الأطراف الأخرى تطوير شبكة علاقاتها الدولية، لتكون خيارات المنفى مركزية. فعلى الجانب السلوكي، تكشف سنوات ما بعد الانقسام الثاني في 2021 عن تسارع استكمال الهيكل التنظيمي في الخارج. انتشرت هذه التطلّعات لدى كلّ الفِرَق لغرض إثبات الجدارة بتمثيل الجماعة. وبعد مرحلة تمزّق مجلس الشورى وانشطاره، بدأ فريق «إخوان سايت» استكمال عضوية مجلس الشورى في الخارج، بما يُرسّخ وضعية المنفى.

وعلى العموم، يعكس الخطاب السياسي حالةً من الاسترخاء للبقاء في المنفى باعتباره ملاذاً ملائماً للنشاط التنظيمي والسياسي. يظهر هذا الجانب في الحديث بافتخار عن الحقّ في اكتساب جنسية أخرى، تحت تبرير الحاجة الإنسانية وحقّ الانتقال، ورغم وجاهة هذا الرأي، تشير تجارب مُعارَضة المنفى إلى تبدّل الأولويات في الوضع الجديد، وتتراجع الحاجة إلى الخوض في تصحيح المسار السياسي وتأخير أولوية السعي للتسوية السياسية ووضعها ضمن مساومات هشّة، في مقابل الرضا بالبقاء في الهامش الاجتماعي/ السياسي في بلدان المنفى. تُعطي العشر سنوات الماضية مُؤشّراً على مدى تحرّر قيادة الجماعة، بعد خروجها من القاهرة، من القيود الخارجية وتحييد تأثيرها على الشؤون الداخلية للجماعة. في الوقت الراهن، تقع حالة قيادة الإخوان المصرية في موقع وسط ما بين تجربة المنفى العراقية، التي انتهت بمنح الولايات المتّحدة شرعية إعلان الحرب على العراق، وانتهاء حالة المعارضة السودانية بالسلام مع الحكومة، والعودة تحت مظلّة اتفاقات ثنائية وضمانات إقليمية. ووفق السياق الحالي، يتوقّف مآل قيادة حركة الإخوان المسلمين في المنفى على تسارع آثار القيود الخارجية مقارنةً بأريحية علاقتها مع الحكومة المصرية، وهي معادلة لا تبدو صعبةً في محتواها السياسي، ويتوقّف توازنها على مدى استقلال قرار مجموعات الجماعة.

(كاتب مصري في إسطنبول)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads